﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٨٢﴾ [آل عمران: 82]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين إقرار السّابقين بنبوّة الختام، والتّنديد بمن أنكر العهد من الأنام

لمَّا أقرّ الأنبياء في الآية السَّابقة الإقرار، وأمر أتباعهم أن يُؤمنوا، وينصروا النَّبيّ الخَاتم ﷺ، جاءت هذه الآية لتُبيِّن أنَّ بعض أتباع الأنبياء لم يُوفوا بهذا الميثاق الَّذي أُخذ عليهم، ووصفتهم بالفسق لخُروجهم عن منهج ربّهم، ومنهج أنبيائهم، بعدم الإيمان بالدّين الجديد، فاستحقّواْ هذا الوعيد الشّديد.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّىٰ﴾: التَّوَلِّي يكون بمعنى: الإعراض، ويكون بمعنى: الاتِّباع؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ [محمد ﷺ: 38]، أي: تُعرضوا عَنِ الإسلام. وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: 51]، معناه: مَن يَتَّبِعهُم ويَنصُرهُم[1].

2) ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾: الفِسقُ هو الخُروج عَنِ الطَّاعة، وهو" التّرك لأمر الله، وفسق يفسق فسقًا وفسوقًا، وكذلك الميل إلى المعصية، كما فسق إبليس عن أمر ربه"[2]، تقول العرب: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ عن قِشرها: إذا خَرَجَت. وهو أعمُّ مِنَ الكفر. والفِسقُ يقعُ بالقليل مِنَ الذُّنوب وبالكثير، لكن تُعورفَ فيما كان كثيرًا[3].

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

لا يتخلّى عن العهد وينقض الميثاق، إلّا الجاحدون الفسّاق

يؤكّد السّياق الموجز البليغ لهذه الآية أنّ مَن تخلّى بعد وُرود الكتب، وتجلّي الآيات، ورسوّ الأحكام، عن العهد والميثاق، واتّخذ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(2) الخليل، كتاب العين: (فسق).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فسق).

الدِّين وسيلةً للتّفريق والشّقاق، ولم يؤمن بالنّبي الخاتم المصدّق لمن سبقه، ولم ينصره؛ فأولئك هُمُ الخارجون عَنِ الإيمان، والمنسلخون من طاعة الرّحمن[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾:

إِقْرَارُ الأُمَمِ مُلْزِمٌ لِأَبْنَائِهَا عَلَى تَعَاقُبِ الزَّمَنِ

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ شرطيَّةٌ؛ والفعلُ الماضي يَنقَلِبُ معناه إلى المُستقبلِ في الشَّرط والجَزاء، وإنَّما جازَ وقُوع الماضي مَوقِع المُستَقبل في الجَزاء؛ لأنَّ حَرفَ الجَزاء لَمَّا كان يعمل في الفعل؛ قَوِيَ على نَقلِه مِن مَعنى المُضِيِّ إلى الاستقبال، وذلك إشارة إلى أَخذِ الميثاق، فالوعيدُ شامِلٌ لمن تقدَّم في الأمم قبل بعثة النَّبيِّ ﷺ، ولمن سيأتي بعدَه إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها.

ودخلَتِ الفاءُ في (أُولئك)؛ لأنَّه جوابُ شَرط؛ وإنَّما تَدخُل الفاءُ في جواب الشَّرط؛ لأنَّ الثَّاني يجبُ بوجود الأوَّل بلا فَصلٍ؛ كقولك: إنْ تَأْتِنِي فَلَكَ دِرهمٌ، فوجوب الدِّرهم بالإتيان عقيبَه بلا فصل؛ فلذلك جاء بالفاء[2].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالتَّوَلِّي دُونَ الْإِعْرَاضِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾:

التَّوَلِّي أَعَمُّ مِنَ الْإِعْرَاضِ

عُبِّر بالتَّولّي في قول الله تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ دون الإعراض؛ لأنَّ التَّولِّي قد يكون بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار، وهذا هو المناسب للسِّياق، حيث سبق أَمْرُهُم بالإيمان والنُّصرة، إلَّا أنَّ بعضًا منهم لم يُصغِ لهذا الأمر ولم يأتمر به، بخلاف الإعراض؛ فإنَّ معناه: أظهر عُرضَه، أي: ناحيته، وإذا قيل: أعرض عنّي، فمعناه: ولّى مُبديًا عُرضَه.

(1) الخازن، لُباب التّأويل: 1/265، وكذلك أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 376.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/402 - 403، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/685، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/447.

نُكْتَةِ عَدَمِ اقْتِرَانِ الظَّرْفِ بِجَارٍّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَوَلَّىٰ بَعْدَ﴾:

تَحْرِيضُ الْمُخَالِفِينَ عَلَى الرُّجُوعِ إِلَى الْحَقِّ

من الملاحظ أنَّ الظَّرف ﴿بَعْدَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ لم يقترن بحرفِ جرٍّ؛ وذلك لبيان أنَّ المستحقَّ لغاية الذَّمّ إنَّما هو من اتَّصل تولّيه بالموتِ، وهذا المعنى لا يُستفاد إلا بإسقاط حرف الجرّ[1]، ففيه: تحريضٌ لهم على التَّوبة والرُّجوع إلى الحقِّ قبل أن يَفْجَأهمُ الموتُ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِاسْمَيِ الْإِشَارَةِ: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾:

الْمُتَوَلِّي عَنْ مِيثَاقِ اللهِ تَعَالَى النَّاقِضُ لَهُ حَقِيقٌ بِوَصْفِ الْفِسْقِ

الإشارةُ في ﴿ذَٰلِكَ﴾ - من قول الله تعالى ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ - للميثاق، واختيرَ اسمُ الإشارةِ الدالُّ على البُعْدِ؛ لتَفخيم الْمِيثَاقِ وتعظيمِه.

والإشارةُ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ لـ ﴿فَمَن﴾، وجُمِعَ باعتبار المعنى، كما أنَّ الإفرادَ في ﴿تَوَلَّىٰ﴾ باعتبار اللَّفظ، واسمُ الإشارةِ (أولئك) الدَّالُّ على البُعدِ إشعارٌ بِتَرامِي أمرِهم في السُّوء وتَماديهم فيه، وبُعدِ مَنزلَتِهم في الشَّرِ والفسادِ، أي: فأُولئك المُتولُّونَ المُتَّصِفونَ بالصِّفات القبيحة.

فتعريف المسند إليه بالإشارة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ تنبيهٌ إلى أنَّ المُسندَ إليه جَدِيرٌ بالوَصفِ المَذكور وهو الفِسقُ؛ وذلك لِتَولِّيه وإعراضه ونَقضه للميثاق الَّذي عاهدَ اللهَ عليه.

وقدِ استُفيدَ مِن هذا الأسلوب، وهو تعريف المسندِ إليه باسم الإشارة وتعريف المسند باللَّام: القصرُ والحصرُ؛ لتعريفِ جزأيِ الجملةِ.

وضميرُ الفصل ﴿هُمُ﴾ يُرادُ به توكيدُ القصرِ لا إنشاؤُهُ؛ لأنَّ ضمير الفصلِ مؤكِّدٌ للجملة إذا وُجِدَ طريقٌ آخرُ للقصرِ، وذلك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/471.

لقصدِ المبالغةِ؛ إذْ إنَّ فسقَهُم في هذه الحال أشدُّ فسقًا؛ فجعل غيره من الفِسق كالعَدَم[1].

عِلَّةُ تَوَالِي الْمُؤَكِّدَاتِ فِي الْآيَةِ:

الْمُبَالَغَةُ فِي التَّأْكِيدِ تَنْوِيهٌ بِالْمُؤَكَّدِ وَتَعْظِيمٌ لِشَأْنِهِ

تَوالَتِ المُؤكِّدات في بناء الآية الكريمة، فقد أُكِّدَ فِسقُهُم باسم الإشارة الدالِّ على البُعْد، وبتعريف الطَّرفَين الَّذي يُفيدُ انحِصارَ الفِسق فيهم، وأُكِّد أيضًا بضمير الفَصل الَّذي يُفيدُ تقويةَ التَّخصيص[2].

سِرُّ اخْتِيَارِ لَفْظَةِ ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فَاصِلَةً لِلْآيَةِ:

خُطُورَةُ الْفِسْقِ، وَهُوَ عَلَى دَرَجَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ

لمَّا كان الفِسقُ هو الخُروجَ عَن أمر الله تعالى وطاعته، وكان بين أدنى مَنزلةٍ وأقصاها بَونٌ بعيد؛ صار له مَنازِل كثيرة، فيُطلق تارةً على الذَّنب الصَّغير، نحو قوله: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ﴾ [البقرة: 282]، وتارَةً على الكُفر والشِّرك، نحو: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السّجدة: 18]، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ [السّجدة: 20]، وعلى هذا جاءَ استعمالُ الفاسِقينَ هاهنا[3].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّولِّي والإعراض:

التَّولِّي: الإعرَاضُ مُطلقًا ولا يلزَمُه الإدبار، فإنَّ تولِّي الرَّسول ﷺ عن ابن أمِّ مَكتوم لم يكن بالإدبار، والتَّولِّي بالإدبار قد يكون على حقيقته كما في قوله تعالى: ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: 57]، وقد يكون كناية عَن الانهزام كما في قوله تعالى: ﴿وَضَاقَتْ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/54، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/300، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1297، والدّريهم، سورة آل عمران دراسة بلاغيّة: 1/275.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1297.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/685.

عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾ [التّوبة: 25]. والتَّولّي: قد يكونُ لحاجةٍ تدعو إلى الانصراف مع ثُبوت العقد، والإعراض: الانصراف عَن الشَّيء بالقَلبِ، قال بَعضهم: المُعرِضُ والمُتولِّيّ يشتركان في ترك السُّلوك، إلَّا أنَّ المُعرِض أسوأ حالًا؛ لأنّ المُتَوَلي متى نَدِمَ سهل عليه الرُّجوع، والمُعرِض يحتاج إلى طلب جديد، وغايةُ الذَّمّ الجَمع بينهما[1].

الفِسق والخُروج:

الفِسقُ: الخروجُ عن طَاعَةِ الله، كما قالَ تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: 50] أي: خَرجَ عن طَاعة رّبه، والخروجُ عن طاعة الله قد يكون خروجًا أعظم، وهو الخُروج المُخرج عن دين الإسلام، وقد يكون خُروجًا دون خروجٍ، وهو الفِسق بارتكاب كبيرة؛ ولأجل هذا المعنى، كان الفِسق يُطلق في القرآن على الخروج عن طاعة الله، بمعناه الأعظم، وهو الكفر بالله كقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: 26][2].

الفِسق والفُجور:

الفِسقُ هو الخُروج مِن طاعة الله بكبيرة، والفُجور الانبعاث في المعاصي، والتَّوسع فيها[3]، وأهل اللّغة والتّفسير يرون أنّ الفسق انسلاخ يخرج به صاحبه من ستر الله، وينأى عن مرضاته، لينغمس في معامع الضّلال، ويسقط في مهاوي الابتذال، بينما الفجور إيغالٌ في المُتَع المحرّمة السّاقطة، بلا رقيب من ضمير، ولا خشية من مصير، وكلا الصّفتين مسلكٌ إلى النّار، وبِئْسَ القرار.

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/484، والكفويّ، الكليّات، ص: 28.
(2) الشّنقيطيّ، العَذبُ النَّمِير: 4/284.
(3) الشّنقيطيّ، العَذبُ النَّمِير: 231.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»